- المحاضرة التّاسعة: جماليات المكان في النّص السّردي

محتوى المحاضرة:

- مفهوم المكان وتجلّياته
- مقاربة المكان السّردي
- أنواع المكان
- وظائف المكان في النص السردي

- أهداف الدّرس:

يتوقّع من الطّالب في نهاية هذا الدّرس :

- تمييز المكان السّردي عن المكان الطّبيعي.
- التّعرّف على علاقة المكان بالحدث والشّخصيات دلاليا.
- التّعرّف علة تقنيات توظيف المكان في المنجز الرّوائي.

- المراجع:

- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي.
- أحمد طالب، جماليات المكان في القصة القصيرة.
- نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق.
- رولان برنوف ويبال أوتيليه، عالم الرواية، تر: نماد التكرلي.
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي.
- إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية - دراسة في بنية الشكل.
- حسن نجمي شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية.
- حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي.
- سيزا قاسم، بناء الرواية.
- غالب هلساء المكان في الرواية العربية.

- المحاضرة التّاسعة: جماليات المكان في النّص السّردي

- أ- مفهوم المكان وتجلّياته

يعتبر المكان عنصرا تلازميا في تشكيل البنية السردية، وطرفا أساسيا في المعادلة الاكتمالية لمقتضيات النص، فهو في السرد بمثابة العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل بعضها ببعض، والخلفية التي قد تشكل الرؤيا التي قام لأجلها المنجز الإبداعي، فهو يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة بل إنه قد يكون في بعض الأحيان الهدف من وجود العمل كلّه، والمكان ليس أرضا أو سماء ولكنه تشبيك معقد من الهوية والانتماء والوعي الفردي والجماعي هو الرمز السردي الذي لا تنضب دلالاته إلا بانتهاء العمل، فيتخطى سلبيته وموقعه السطحي الذي هو فيه مجرد ديكور الأحداث إلى مستوى أكثر عمقا. (1)

إنّ فرضية انتفاء المكان من العمل السردي تستدعي بالضرورة انتفاء الزمن منه أيضا، وذلك لأن الزمن لن يجد دون المكان ما ينسج عليه علائقه، وما يؤثر فيه من ذوات فاعلة في النص هي جميعا على علاقة حميمية بالمكان، ولذلك كان توظفي المكان في الإبداع القصصي، من الوسائل الفنية ذات الأعماق البعيدة لما يحمله من ملامح ذاتية، وسمات جمالية وعواطف إنسانية وتجارب اجتماعية تجعل العمل متكاملا فنيا.(2)

والشخصية في علاقتها بالمكان تحاول دوما أن تقهره لا من خلال الحركة الحسية وحدها، بل من خلال الحركة الفكرية والخيالية التي تعد من أهم خصائصها وأكثرها تمييزا» (3)، ولهذا نجد أن الرواية التي قد تحصر أحداثها في مكان واحد تقوم دوما بخلق أبعاد مكانية جديدة، فالنص السردي مهما قلص أمكنته لابد وأن ينفتح على أمكنة أخرى تذكرا أو استشرافا من طرف أبطالها[4]، ناهيك عما تثيره حركات وسكنات هذه الشخصيات في المكان بأصنافه من إحالات زمنية، وعليه تنبني دلالات النص وتتشكل آفاقه.

ولأنّ القائم بالسّرد لا يشيّد أمكنة عمله على الصدفة، بل يقيمها على نحو مخصوص ليحيل بها إلى ما يريده من دلالات، فإنه يقوم بتوزيعها بما يتوافق ووضعيات الشخصيات في العمل، ومع منشودها

---

[1]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 33.

[2]- أحمد طالب، جماليات المكان في القصة القصيرة، دار ،الغرب، وهران ،الجزائر، ط1، 2005، ص 11.

[3]- نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، دار ،قباء القاهرة - مصر، ط1، 1986، ص 135.

[4]-ينظر: رولان برنوف وبيال أوتيليه، عالم الرواية، تر: نماد التكرلي، مؤسسة الشؤون الثقافية، بغداد ، ط1، 1991م، ص 103.

الذي تريده أن يتحقق والنهايات التي آلت أو ستؤول إليها، مما يعدّد الأمكنة بحسب عدد هذه الشخصيات وينوعها يتنوع منشودها، وهو التعدد والتنوع الذي سيشكل للقارئ فيما بعد نسقا مترابطا من الأمكنة النصية المحمّلة بدلالات جزئية يتحصل بلملمتها على ما يساعده على فهم المبتغى الكلي للعمل، وهو ما يمنح المكان موضعا استراتجيا فيرضه كموضوع للفكر الذي يخلقه الروائي / المبدع بجميع أجزائه»[5].

ب - مقاربة المكان السّردي

ولهذه المكانة والأهمية التي يحظى بها المكان يشترط "ميتيران" في دراسته، عدم الاكتفاء بالبحث في تشكلاته وتمفصلاته الجلية، أو في تمظهراته السطحية؛ أي في توالي الوصف الطوبوغرافي له وانتقالات الشخصيات داخل المجال المحدد فقط، بل يوجب الكشف عن العلاقات البنيوية العميقة التي توجه النص وترسم مساره.[6]

وعليه، فإنّ استنطاق المكان من النص السردي يستدعي أداة إجرائية ومفهوما نقديا يوصل إلى ما هو جوهري من الدّلالات وهذا المفهوم هو ما تصطلح عليه الشعرية في بنائها النظري بالتقاطب؛ وهو ما يأتي عادة في شكل ثنائيات ضديّة تجمع بين قوى أو عناصر متعارضة بحيث تعبر عن العلاقات والتوترات التي تحدث عند اتصال الراوي أو الشخصيات بأماكن الأحداث»[7]. هذه الثنائيات/ التقاطبات نذكر على سبيل التمثيل : [المفتوح والمغلق) (المتصل والمنفصل)، (القريب والبعيد، اليمين واليسار العالي والمنخفض الثابت والمتغير (المركزي والهامشي)، (السطحي والعميق)...]، التقاطبات التي يجعلها الباحث مطيّة للانتقال من دلالة المكان الواحد إلى مجموع الأمكنة في النص، ربطا للدلالة بعضها ببعض، واستجلاء الدلالة الكلية التي تواريها طبيعة العلاقة التي تجمع بين هذه الأمكنة، وذلك باعتبارها "القاعدة الأساسية لسير الواقع النفسي والبعد الاجتماعي للشخصية حسب توظفيها وفق الاتجاه العام للقصة[8]، وهو ما سيمنح البحث بحسب ما تقتضيه المدونات السردية المشتغل عليها ما

---

[5]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 27.

[6]- المرجع نفسه، ص 38.

[7]- المرجع نفسه، ص 33.

[8]- أحمد طالب جماليات المكان في القصة القصيرة، ص14.

يقتحم به الفضاء السردي في مستوى من مستوياته، المتصل بالمكان بما هو المكون الرئيس لهذا الفضاء» [9]؛ لأن المحكي لا يتاح له أي تحقق استيتيقي إلّا بهذا السند (Support) الأساس للعمل السردي: الفضاء. هنا حيث تتحول الأشياء من هندسة التقاطب البسيطة الأولية إلى مستوى التعقيد والتشابط والمتاهة مستوى التحول المسخي) (Métamorphique)[(10)]، وفي هذا المستوى يتم الارتقاء إلى مستوى جعل التجربة الخارجية. على نحو ما أوضح كانط ضرورية للتجربة الداخلية ما دامت هذه الأخيرة عصية على الوصف وترفض أن تتكلم[11] ، وهو ما يتيح رصد دلالة المكان الزمنية وهو في حالة التحول والحركة وبمختلف الصور سواء القائمة على أساس مرجعية واقعية أو المتذهنة كما تتبدّى في العالم الداخلي للذات الفاعلة في النص لأن الفضاء وحده من فيترض دائما تصور الحركة داخله، أي فيترض الاستمرارية الزمنية»[12]، وهو ما يؤكد أكثر حضور الزمن في المكان بناء ودلالة.

إن في الساحة السردية التنظيرية والتطبيقية على حد سواء الكثير من الاجتهادات النقدية التي تسعى إلى مقاربة المكان انطلاقا من مقولات محددة تهدف إلى تقديم قراءة شاملة للنص، والتي لم تنأى عن مفهوم التقاطب الموضح آنفا، ومن ذلك على سبيل التمثيل ما قدمه "لوتمان" حين دعا إلى مساوقة القيم مع مجموع التقاطبات المستند إليها في التحليل وقراءة النص من هذا المنظور، كأن

نتطرق إلى الحسن والسيئ، حين الحديث عن اليمين واليسار والقيم والرخيص حين الحديث عن العالي والمنخفض (...) ويرجع لوتمان ذلك إلى أن للأمكنة دلالات قيمية ومعادن شكلت للتعبير بها لا للتعبير عنها [13]، وفي هذا المساق، يقدم غاستون باشلار" قراءته لهذا المكوّن النصي انطلاقا من دعوى مفادها ضرورة التعامل مع المكان على أنه رمز لغوي نصي يوجب لفهمه وإدراك قيمته استنباط سماته لتحديد دلالاته وتفسيرها ثم تأويلها وذلك في ظل العلاقة التي تجمعه بالشخصية، وفي هذا تحدث

---

[9]- ينظر: إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية - دراسة في بنية الشكل، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر - الجزائر، ط1، 2002، ص 33

[10]- حسن نجمي شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - المغرب، ط1، 2000، ص.69.

[11]- حسن نجمي شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، ص.69.

[12]- حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط.3، 2000، ص 63.

[13]- ينظر: سيزا ،قاسم بناء الرواية، دار التنوير بيروت ، بيروت ،لبنان، ط1، 1985، ص 75.

صاحب "جماليا المكان" عن عنصر الألفة مع المكان من عدمها، وأشار إلى الأماكن الاختيارية التي تتحقق فيها هذه الألفة وتتجسد فيها المشاريع والأحلام، والأماكن الإجبارية التي تغيب فيها الألفة ويغيب معها الحلم.

ج- أنواع المكان

بالاستناد إلى العلائق التي تجمع المكان بالنص السردي ، وأمداء حضوره فيه، وطبيعة هذا الحضور يميز النقاد بين ثلاثة أنواع من الأماكن، وهي الأنواع التي عرضها "غالب هلسا" في كتابة "المكان في الرواية العربية"[14]، على النحو الآتي:

المكان المجازي: وهنا يكتسي هذا المكان طابع الديكور والساحة التي تقع فيها الأحداث، ولا يمكن إعطاؤه أهمية كبيرة أثناء عملية القراءة لأنه لا ينقل تفاعلات الشخصية ومجموع الأحداث التي يتضمنها النص.

المكان الهندسي: وهو المجسد بأبعاده البصرية، والمنقول بمقاساته، والمصوّر بتفاصيله لكن مع غياب الحياة فيه.

المكان التجربة: وهو الحامل لهواجس الذات المقترن بتصورها له المستثير الخيال القارئ، غير الثابت على شكل، واحد الرابط لكل مكونات النص المفضي إلى الدلالة الحقيقية لما يمكن تسميته بالمكان.

د وظائف المكان في النص السردي

ومن أبرز الوظائف الدلالية والجمالية التي تؤديها تشكلات المكان في النص السردي نذكر:

- ✓ التعبير عن بواطن الشخصيات والتدليل على رؤيتها وأفكارها، وبهذا يصبح المكان «خزانا حقيقيا للأفكار والمشاعر والحدوس، حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر»[15].

---

[14]- ينظر : غالب هلساء المكان في الرواية العربية، دار ابن هاني ،دمشق، سوريا، ط1، 1989م، ص08-09.

✓ المساهمة الفاعلة في بناء دلالات النص السردي العامة وتأطيرها تراتبيا وزمنيـا وفق إيقاع يحفظ للقارئ حدودا واسعة للفهم وإدراك المضامين.

✓ ضبط العلاقات بين المكونات السردية والمساهمة في تشكيل حوافز لخلق متواليات سردية فاعلة داخل النص.

✓ يمكن قراءة النص ككل انطلاقا من تشكلات المكان، لأنه يحيل بذاته على مجموعة كبيرة من الرؤى والأصوات التي تتواشج مع بعضها لتشكل النص السردي.

✓ المساهمة في نقل القارئ من مرحلة القراءة المجرّدة إلى مرحلة التمثل، وذلك بتخيل الشخصيات والأحداث عبر المكان الذي تنتقل فيه وتعيش داخله وتحس به وبذلك تنقلب الغرفة التي نحن فيها إلى مكان آخر يخلق ديكور الرواية [16]، مثلما يقول ميشال بوتور.

✓ المساهمة في الكشف عن طبيعة الشخصيات وفهم الهدف من توظفيها، لأن المكان كما يقرّه ويلك تعبيرات مجازية عن الشخصية، لأن بيت الإنسان امتداد له فإذ وصفت البيت، فقد وصفت الإنسان».[17]

---

[15]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص31.

[16]- ميشال بوتور بحوث في الرواية الجديدة، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1971، ص 59.

[17]- رينيه ويلك/ أوستن وارين، نظرية الأدب، تر. محي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، دمشق - سوريا، ط1، 1972،ص 288.